قراءة في كتاب
الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التَّداوليَّة
عند السيِّد رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحِلِّيّ
(ت٦٦٤هـ)

عرض : م.د. إحسان جودة كاظم البيرمانيّ
وزارة التربية/مديريَّة تربية بابل

Reading in a Book
Ethical Discourse and its Deliberative Dimensions with Sayyid Radhi Al-Din Ali bin Tawoos Al-Hilli (D. 664 AH)

Presentation By: Lect. Dr. Ihsan Judah Kazem Al-Birmani
Ministry of Education/Babylon Education Directorate

الحمد لله تعالى الذي شهد لنبيِّه الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وندبه لأن يعفو عمَّنْ أساء إليه بجهالة، فقال سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وأمره أن يرشد المؤمنين لأن يتأسّوا به، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والصلاة والسلام على سيِّدنا ومولانا محمَّدﷺ القائل: «**اللهمَّ حَسِّنْ خلقي وخلقي**»، والقائل: «**اللهمَّ جنِّبني منكرات الأخلاق**»، وعلى أهل بيته الطيِّبين الطاهرين الموصوفين بكلِّ خلقٍ حسنٍ جميل.

أمَّا بعد: فمن بين إصدارات مركز تراث الحِلَّة التابع لقسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة في العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة كتاب (الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التَّداوليَّة عِندَ السيِّد رضيَّ الدين عليّ بن طاووس الحِلِّيّ (ت٦٦٤هـ))، الذي أتحفنا به الأستاذ الدكتور حُسَين عَليّ حُسَين الفَتليّ، والأستاذ الدكتور رحِيم كَرِيم عَليّ الشريفيّ. وهو كتاب نفيس في جنسه، مفيد في بابه، كشف فيه المؤلِّفان عن شخصيَّة حِلِّيَّة اتَّسمت بالعلم والورع، إذ تناولا الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداوليَّة عند هذا العالم الجليل، والذي أغرى المؤلِّفان في ذلك وجود مدرسة علميَّة كبيرة آنذاك، في وقت خيَّم فيه الجهلُ والتخلُّف والجمود الفكريّ على كثير من البلاد الإسلاميَّة بعد النكبات التي مُنيت بها.

وإيمانًا من الباحِثَين، ومن باب الإحساس بالمسؤوليَّة تجاه هذه المدينة المباركة، أنجزا هذا العمل، مسلِّطَين الضوء فيه على مؤلَّفات هذا العالم النحرير، الذي يستحق الدراسة؛ لما خلَّفه من تراثٍ علميٍّ وفكريٍّ ضخم.

ومن أجل عرض هذا الموضوع والوقوف عليه، نوجز هذه القراءة بالآتي:

فأمَّا نقطة الانطلاقة في تأليف هذا الكتاب، فقد كانت لما أحسَّ به الباحثان من ضرورة خدمة التراث اللغويّ العربيّ عامَّةً، والتراث اللغويّ الحِلِّيّ خاصَّة، وهو من باب العرفان منهما لعلماء مدينتهم، فكان ابن طاووس هو محطَّ دراستِهما، ومَحَزَّ بحثهما، وخطابه الأخلاقيّ هو الرتاج الوسيع الذي نفذا منه لسَّبر غور هذه الشخصيَّة الأخلاقيَّة الكبيرة، مضيفين أنَّ التراث الحِلِّيّ كان وما يزال به حاجة إلى الأيادِي الأمينة التي تكشف النقاب عن شخصيَّات لم تحظَ بمرقاةٍ عند الباحثين والدَّارسين.

ومن أجل تبصرة القرَّاء بالمسار الإبداعيّ، والمسارب المعرفيَّة المتنوِّعة التي سطَّرها علماؤنا؛ ولاسيما رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحِلِّيّ، الذي يُعدُّ من علماء الإسلام المخلصين والمحقِّقين الأخلاقيِّين والتربويِّين، كانت هذه الدراسة.

وممَّا يسترعي الانتباه أنَّ نصوص ابن طاووس- وقد اختار الباحثان جملة منها- تُعدُّ من النصوص الأخلاقيَّة القيِّمة التي تميَّز بها (ابن طاووس)، الأمر الذي يجعل دراستها جديدة في بابها.

وقبل شروعهما بتأليف هذا المنجز العلميّ، عمد المؤلِّفان إلى عمل دراسة مستفيضة اطَّلعَا فيها على تراث الحِلَّة، فيما يتعلَّق بموضوعهما الشائق (الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداوليَّة)، الذي شَرعَا الحديث عنه عند عَلَم من أعلام الحَلَّة الفيحاء، إذ استقصاه استقصاءً مستفيضًا، وشملت دراستهما كلَّ ما عنَّ لهما من كتبٍ ومخطوطاتٍ لهذا العَالم الحَلِّيّ الجليل.

وأمَّا سبب التأليف، فقد ذكر المؤلِّفان أنَّه جاء تلبيةً للدعوة إلى لزوم إعادة قراءة التراث بوسائل منهجيَّة حديثة؛ من أجل استنباط الأسس المعرفيَّة المتنوِّعة التي بُني

عليها الفكر الموروث، ومن ثمَّ الإسهام الجادّ والمثمر في تفعيل التراث في الدراسات اللغويَّة الحديثة، وقد اعتمدا لنسج خيوط بحثهما هذا المنهج الوصفيّ القائم على لملمة أهمِّ الخطابات الأخلاقيَّة، ثمَّ عرضها على مسائل الموضوع، وإشباعها مناقشةً، وقد أفادا من دراسات الباحثين ممَّن كتبوا في هذا المجال.

أمَّا تقسيم كتابهما، فقد جاء في أربعة فصول، يسبقها تمهيد، وتعقبها خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع، أمَّا التمهيد فعرضا فيه لحياة ابن طاووس وأقوال العلماء فيه وشيوخه وتلاميذه ودلالة الخطاب الأخلاقيّ، ثمَّ بيَّنا مفهوم التداوليَّة.

وعُني الفصل الأوَّل بجذور الخطاب الأخلاقيّ عند (ابن طاووس)، وضمَّ ثلاثة مباحث، الأول: القرآنيَّة في الخطاب الأخلاقيّ لابن طاووس، والمبحث الثاني: أقوال الرسول ﷺ والأئمَّة المعصومين عليهم السلام، وضمَّ المبحث الثالث: أقوال العلماء الذين سبقوه.

وخُصِّص الفصل الثانيّ للحديث عن سمات الخطاب الأخلاقيّ، في سبعة مباحث، الأوَّل: الدعاء والمناجاة، والثاني: الشموليَّة، والثالث: العقلانيَّة، والرابع: تعقيب الخطابات الإنشائيَّة، والخامس: تخيُّر الألفاظ، والسادس: مزيَّة الفضاء (الزَّمكانيّ)، والسابع: التقابلات الدلاليَّة.

أمَّا الفصل الثالث، فجاء بعنوان: الأفعال الكلاميَّة في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلِّيّ، وضمَّ مبحَثَين، أحدهما: الأفعال الكلاميَّة المباشرة، والآخر: الأفعال الكلاميَّة غير المباشرة؛ وأردفا الفصول المتقدِّمة بفصلٍ رابع جاء فيه عصارة الجهود المبذولة فيما سبق، وكان عنوانه: الاستلزام الحواريّ والحِجاج في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلِّيّ، بمبحَثَين، الأوَّل: الاستلزام الحواريّ، والثاني: الحِجاج. وخُتمت الدراسة بجملةٍ من النتائج مشفوعة بالتوصيات.

أمَّا مصادر الدراسة، فقد اعتمد المؤلِّفان في دراستهما على مصادر متنوِّعةٍ، من كتب التراجم والسير واللغة والنحو والأخلاق والتداوليَّة، وتحليل الخطاب، وغير ذلك.

وظهر في ضوء الدراسة إفادة السيِّد ابن طاووس من الخطابات الأخلاقيَّة عند سابقيه؛ ولاسيما الخطاب الأخلاقيّ الطوسيّ نسبةً إلى الشيخ أبي جعفر الطوسيّ (ت٤٦٠هـ) صاحب مجموعة (مِصباح المتهجِّد)، والخطاب الأخلاقي الورَّاميّ نسبة إلى الشيخ الزَّاهد ورَّام بن أبي فراس الحِلِّيّ(ت٦٠٥هـ)، صاحب المجموعة الأخلاقيَّة المعروفة بـ(مجموعة ورَّام- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، فضلاً عن استمداد خطابه الأخلاقيّ من القرآن الكريم ومرويَّات أهل البيت عليهم السلام.

وتبيَّن أيضاً أنَّ السيد ابن طاووس الحِلِّيّ، من المؤسِّسين لفقه الأخلاق، وتحصَّل هذا الحكم في ضوء ما وقف عليه الباحثان من خطابات أخلاقيَّة مبثوثة في كتبه.

ختم المؤلِّفان كتابهما بفهارس نافعة أطلقا عليها (الفهارس الفنيَّة)، وفيها تسهيل على القارئ والباحث لتحديد المعلومة التي يبحث عنها في الكتاب، وقد جاءت كالآتي: فهرس الآيات مشتمل على اسم السورة ورقم الآية والصفحة التي ورد ذكرها في الكتاب، وفهرس الأحاديث النبويَّة الشريفة مشتملًا على مَنْ أُثر عنه الحديث ومظانِّه مع رقم الصفحة التي جاء الحديث فيها، وفهرس للأئمَّة المعصومين عليهم السلام، وشمل اسم المعصوم، ورقم الصفحة التي ورد فيها ذكره الشريف، وفهرس للأعلام ذُكر فيه اسم العَلَم مع رقم الصفحة التي ورد فيها اسمه، وكذلك فهرس خاصّ بالمؤلَّفات، وفيه اسم المُؤلِّف مع أرقام الصفحات التي يرد فيها ذِكر ذلك المؤلَّف، وفهرس الأماكن والبلدان، ثمَّ جاءت فهرسة المحتويات، وشملت موضوعات الكتاب.

وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.